كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان

مخبر بحث:" تجديد مناهج البحث والبيداغوجيا في الإنسانيات".

الملاحظة وأثرها في تطوير المباحث اللّسانية

محمد الصّحبي البعزاوي:

تمهيد:

- تندرج المداخلة في إطار التعرّف على بعض القضايا المنهجية المؤثّرة في تطوّر الدّراسات اللّسانية المعاصرة.
- لِمَ نهتم بالقضايا المنهجية؟ ما هي فوائدها؟ = يمكن أن نشير ببساطة إلى أنّ فهم التمشّي المنهجي لأيّ فرع من الفروع المعرفية قد يمكّن الباحثمن تمثّل ذاك الفرع وتتبّع مظاهر تطوّره.= (سؤال كيفية/ كيف نبحث؟)
- (الاهتمام بالملاحظة/= الاختبارية/ الوضعية): = إذا أردنا أن نؤرّخ للملاحظة فإنّ هذا المفهوم يبدو قديما في تاريخ الفكر،، ولكن يبدو أنّه مقترن بمفهوم آخر عند أرسطو وهو مفهوم الاختبارية. (التي تعني الطبيب السيّئ الأخرق... الذي يعتمد الحواس في تشخيص الدّاء...).//////////////////
- تنبني المداخلة على إشكاليتين أساسيتين، في تقديري،: الأولى/ تتعلّق بالملاحظة وقد اتضحت معالمها في المنهج التجريبي كما سيتضح لاحقا. والثانية/ تتعلّق بأثر الملاحظة في تطوير المباحث اللّسانية،، وإن كانت من أكثر المفاهيم استخداما في المجالات العلميّة المختلفة سواء في صياغة فرضياتها أو في تفهّم كيفية اشتغالها
- الملاحظة من المفاهيم العابرة للمعارف. = معنى هذا أنّه توجد مفاهيم ثابتة في مجالاتها المعرفية تعبّر عن خلفية نظريّة محدّدة وأخرى قد تمسح أكثر من مجال،،، وهو ما يجعل متابعتها وتحديد بطاقتها الوصفية أمرين على غاية من الصعوبة.

1/ الملاحظة مفهوم وتقنية/طريقة :

- رغم كون الملاحظة من المفاهيم العابرة للمعارف، فإنّ مختلف الحقول المعرفية قد عبّرت عن المفهوم بمصطلح واحد تقريبا،،، ولم نجد في الحقول التي بحثنا فيها عن الملاحظة مصطلحا مغايرا للمفهوم(فمفهوم الملاحظة قد تمّ التعبير عنه بمصطلح ملاحظة).
- ولعلّ القاسم المشترك بين المعارف في الاهتمام بالملاحظة هو "المراقبة" التي تنبني عليها عمليات الوصف والاستقراء عموما وصولا إلى استنباط الأحكام= (الاستنباط يكون بالانطلاق من الملاحظة ومن قضايا قابلة للدّحض أو الإثبات)
- الأمر الآخر الذي يمكن الإشارة إليه في هذا الباب، أنّ الملاحظة قد عُدّت مقياسا من بين المقاييس المحدّدة للمنهج العلمي= لأنّه انطلاقا من الملاحظة يمكن التخلّص من العوائق الابستمولجية التي أنتجتها الإيديولوجيا،،، لأنّ الملاحظة تكون عادة غير مسبوقة،، وتسيطر عليها التساؤلات أكثر من الأجوبة،،،= وبما أنّ الابستمولوجيا تسعى إلى تقديم أجوبة = فقد ادّى ذلك إلى مجاوزة الملاحظات الطّبيعية التي تكون عادة غير مسبوقة،، واستبدالها بملاحظات مخبرية (مفتعلة)...بحثا عن الحقيقة العلمية.
- لكن الاهتمام بالملاحظة باعتبارها مفهوما يدعونا إلى التنبيه أيضا،، إلى أنّ بعض الحقول المعرفية لم تستعمل الملاحظة باعتبارها مفهوما وحسب بل باعتبارها تقنية أو طريقة مباشرة في العلاج observation méthodique directe ،
  - . Technique fondamentale de la médecine et de la psychologie, elle exige un contact immédiat et poursuivi dans le temps de l'observateur et de son objet (Traité sociol.,1967, p.141).

= فالملاحظة من هذا المنظور هي تقنية أيضا يعتمدها المتخصّص في علم النفس مثلما يعتمد الاستبطان منهجا في العلاج.

وقد أصبحت هذه التقنية (الملاحظة الخارجية المباشرة) المرتبطة بعمليات تجريب متتالية أكثر تعارضا مع الاستبطان.

 –En PSYCHOL. L'observation Phase fondamentale de l'expérimentation. Observation en milieu ouvert. Surmonter le conflit classique de l'introspection et de l'observation externe du comportement (Ricoeur ,Philos. volonté,1949, p.211).

= وعلى هذا الأساس تمّ التمييز بين نوعين من العلوم

Les sciences d'observation et les sciences expérimentales n'ont donc pas le même caractère ni la même puissance

= وهو تمييز يُظهر أنّ الملاحظة تتنزّل منزلة التجربة وتوصف بها المعارف. وهو أساس العلوم الوضعية:

2/ الملاحظة/ العلوم الوضعية:

ـ الوضعية تتطلّب في المقام الأوّل الانطلاق من الأشياء الملَاحَظة ، وهذه الأشياء تتحدّد بذات مُلاحِظة.

ـ الملاحظة هي الأساس الأوّل الذي ينبني عليه التفكير العلمي في المنهج الوضعي

ـ العلم الوضعي يصف ما عليه الشيء في الواقع

ـ المرحلة الوضعية هي مرحلة العلوم التجريبية (الوضعية الجديدة)، وهي مرحلة في تاريخ الفكر البشري تأتي بعد مرحلتين متعاقبتين هما المرحلة اللاّهوتية(تفسّر فيها الظواهر بالخوارق) والمرحلة الميتافيزيقية(تعويض القوى الخارقة بقوى غيبية في تفسير الظواهر).

= بينما هذه المرحلة لا تعتمد إلاّ ما يلاحظ مباشرة ،،،أي هي تطمح إلى وصف الشيء في ذاته دون الاستعانة بمعطيات خارجية (في مرحلة أولى على الأقل ،، الابستمولوجيا تطلب أجوبة،، والملاحظة تطرح أسئلة)

- فالوضعية : هي كلّ نظرية لا تعتبر إلاّ ما يُلاحظ مباشرة من السلوكات الفعلية(مثل: مثير / استجابة): ديبوا/ وعلى هذا الأساس فإنّ الأقوال تُفسّر انطلاقا من خصائصها الخارجية الظاهرة= وهو الأساس الذي انبنت عليه المدرسة التوزيعية في أمريكا. (أقصت المعنى من الدراسة في معنى أنها عولت على الخصائص الشكلية التي يمكن ملاحظتها للوصول إلى المضامين...)

3/ ما الملاحظة؟ ما هي أنواع الملاحظات؟ (إرجاء التعريف لأسباب منهجية):

- الملاحظة : هي نشاط أساسه مراقبة الظواهر مراقبة دقيقة. فإذا كانت خالية من كلّ تدخّل خارجي فهي طبيعية،،، وإذا كانت مبنية على انتقاء الظواهر والتصرّف فيها، فهي مفتعلة أو هي مخبرية = (ملاحظة طبيعية/ ملاحظة مخبرية).

= هناك من يصف هذين الصنفين بـ: (الملاحظة البسيطة، وهي ملاحظة تعتمد على الحواسّ/ والملاحظة المركّبة ، وهي ملاحظة تعتمد على الآلة). (بعض الدراسات أصبحت تتحدث عن الملاحظة بالمجال: الملاحظة الطبية ، الملاحظة العسكرية، الملاحظة الرياضية، في الفيزياء...)

- L'observation est l'action de suivi attentif des phénomènes, sans volonté de les modifier, à l'aide de moyens d'enquête et d'étude appropriés. Elle se distingue de la méthode expérimentale, qui passe par une purification des phénomènes, souvent à l'intérieur d'un laboratoire.

- ولكن مهما كان نوع الملاحظة (طبيعية أو مخبرية- مفتعلة/ بسيطة أو مركّبة...)، فإنّ الملاحظة هي أساس المنهج التجريبي ومنها تُبنى الفرضيات وتتحدّد النظريات: (الملاحظة، الافتراض، الاختبار، النتيجة، المبدأ/ القانون= النظرية...) = (الأساس المنهجي الذي اعتمده شومسكي في البحث عن الكليات اللسانية ووضع نظرية المبادئ والمقاييس)
  - L'observation est une expérience de sélection et de recueil d'informations sur un phénomène, objet d'étude, en vue de dégager des hypothèses ou de vérifier celles découlant d'observations antérieures. Ce stade de la recherche est indispensable dans tous les domaines scientifiques, dans les sciences naturelles comme dans les sciences humaines et sociales,
- اللسانيات من بين العلوم الإنسانية التي أفادت من هذا المنهج أيّما إفادة عمليات الاستقراء في المدراس الأمريكية خاصة انبنت في هذا السياق بلومفيلد/ هاريس/ شومسكي.
- //// في هذا السياق يمكن أن أؤكّد على أمر أعتبره أساسيا في دراسة هذا النشاط الواعي (الملاحظة) وهو أنّ:
  - الملاحظة يمكن أن تكون غير مقصودة ، أي هي ملاحظة غير مسبوقة تسيطر عليها التساؤلات أكثر من الأجوبة
  - والملاحظة المقصودة، مبنية على ملاحظات سابقة ومعلومات سابقة أيضا، وهي تطرح تساؤلات بدورها ولكنّها تقدّم أجوبة محتملة أيضا
  - الملاحظات التي تسبق التجارب أقل بكثير من الملاحظات التي تتم بالتجارب.

3/ شروط الملاحظة: ينبغي أن تتوفّر جملة من الشروط حتى تكون الملاحظة ناجعة علميا:

سلامة الحواسّ/ سلامة الأدوات، الآلات/ الابتعاد عن المؤثرات السلبية/ الانتباه لكلّ ما هو غير متوقع/ عدم الإفراط في تعميم نتائج الملاحظة / حياد الملاحظ .

4/ أثر الملاحظة في اللّسانيات: الأنساق التصنيفية نموذجا.

- نبّه إلى أنّ أهمّ آلة في الملاحظة اللّسانية هي الحاسوب،، ونبّه أيضا إلى أنّ الملاحظة في اللسانيات هي ملاحظة مسبوقة أيّ إنّ للملاحظ جملة من المعطيات والمعارف المسبقة بخصوص الموضوع المدروس.
- يمكن أن نرجع الاشتغال بالملاحظة منهجا في وصف الألسنة إلى بلومفيلد والمدرسة التوزيعية عموما ،،و كان بلومفيلد قد أكّد في مواضع متعددة من كتابه"اللغة"، ضرورة الانطلاق من الملاحظة عند مباشرة اللساني لعمله. = ويعود ذلك حسب ج.مونان، إلى مشاركة بلومفيلد في وصف الألسنة الهندية الاوروبية وتبيّنه أهميّة الملاحظة في وصف تلك الالسنة وتصنيفها ووضع قواعد لها//// حاملا بذلك اللسانيات على العلوم الوضعية، إذ العلم لا يوصف بالوضعي حسب أوغيست كونت:" أي لا يكون وضعيا إلاّ إذا ما تأسّس مطلقا على الظواهر الملاحظة"

une science ne devient positive qu'en se fondant exclusivement) (sur des faits observes

(EU.Positivisme)

- ويبدو أنّ هاريس هو أوّل من دقّق كيفية الاشتغال بالملاحظة في وصف الألسنة وتفسير اشتغالها حين دعا إلى ضرورة الانطلاق في الوصف والتصنيف من مدوّنات أي تقييد الملاحظة حتى يتمكّن الملاحِظ من السيطرة على الموضوع الملاحَظ .=

- انطلاقا من المدوّنة يمكن التخلّص من الأحكام القبلية واستقراء النصوص باعتماد الملاحظة من أجل توزيع الوحدات في خصائصها الظاهرة على جداول
ـ يستخرج الباحث القانون الذي بمقتضاه يعتبر أنّ الخاصية الملاحظة في الاجزاء المكوّنة للقسم هي خاصيّة القسم = وهذا يؤدي إلى إبراز الثوابت المقوّمة للأقسام على حساب المتغيّرات.

أمثلة:

هنا يمكن أن نشير إلى عدد من الأبحاث اللسانية في النصف الثاني منالقرن العشرين،، ومنها على وجه التمثيل " أعمال غ. قروص ونظريته "أصناف الأشياء" التي تعود جذورها إلى نظرية النّحو ـ المعجم،، وهي نظرية تعتمد المكوّنات المعجمية والمكوّنات التركيبية الدلالية في وصف الوحدات وتوزيعها إلى أصناف بعينها،

ولعلّ ما يجمع هذه النظرية بباقي النظريات البنيوية والتوليدية أنّها تنطلق في وصف الوحدات اللّسانية من الجملة البسيطة باعتبارها وحدة دنيا لدراسة المعنى ولكنّها تفترض، على غرار نظريّة من المعنى إلى النصّ (Meaning Text Theory) لإيغور مالتشوك، أنّ وصف لسان ما وصفا علميا صريحا يعني بالضرورة بناء معجم صريح لذاك اللّسان تُضبط فيه خصائص كلّ وحدة والصّنف الذي يمكن أن تنضوي تحته (وهو امر يقتضي بالضرورة الانطلاق من الملاحظات العينية).

فالعودة إلى وصف الألسنة البشرية في النّصف الثاني من القرن العشرين انطلاقا من البحث في القواسم المشتركة بين تلك الألسنة (Les Universaux Linguistique) قد قوّى النزعة الوصفية لدى عدد من اللّسانيين فاعتبروا التصنيف شرطا ضروريا من شروط وصف الألسنة لكونه يمكّن اللّساني من التأكّد من النتائج الوصفية فضلا عن تمكينه إيّاه من تجنّب عمليات الانتقاء في الوصف:

وهنا يمكن أن نشير إلى أنّ الملاحظة هي النشاط الأوّل/ الأساسي للتصنيف ، بل لدراسة اللّغة دراسة واضحة ودقيقة،، فقد اعتبر شومسكي الملاحظةأداة وصف بها

يمكن تصنيف الوحدات والتمييز بينها على أساس سماتها = مثال السمات المطابقية التي استخلصها في دراسته للمضمرات(expletives) ومنها المطابقة الغنية التي تكون سماتها قوية (strong features)والمطابقة الفقيرة (weak features)التي تكون سماتها ضعيفة .

بل انطلاقا من ملاحظة خصائص الألسنة البشرية ،،،يمكننا تحديد مواصفات النحو الكلي :

- إنّ النحو الذي نقترحه للغة أ ينبغي أن يكون صالحا للغات أخرى
- أن يقوم على مبادئ بسيطة ويشمل اغلب الظواهر فيفسرها
- وقد لاحظ شومسكي أنّ هذا النحو الذي يوازي الأنحاء النووية/ الفطرية يتميّز بثلاثة شروط أساسية هي: شرط الوضوح (clear . legible)/ الإفادة (usefull)/ البساطة ()، وأنّ استخراج المبادئ المسيرة لهذا النحو من الألسنة البشرية المختلفة بالملاحظة حلّ مثالي(good design) لوصف تلك الألسنة وتفهّم كفاءاتها التفسيرية.

المهم فيما تقدّم أنّ النتائج التي حقّقتها الوضعية وقد انطلقت من الأشياء الملاحظة،،،قد قوّت نزعة عدد من اللّسانيين من اعتماد هذا المنهج سواء في وصف الألسنة أو في تحديد ما يوجد بينها من صلات.

ويبدو انّ